الكلبة
دكتور
بقدونس

الكلبة

دكتور بقدونس

1

لو قُدر للذاكرة أن تنمو كالعفن، لكانت هذه الجدران هي المختبر الأول... وكان اسمي، على الأرجح، أحد أبوابها المقفلة.

حين وطئت عتبة هذا المنزل—ذلك الهيكل الحجري الذي يشبه النبضات الأخيرة لقلبٍ متعب—شعرتُ أن الهواء أكثر كثافة مما ينبغي، وأن الضوء، على ندرته، ينكسر بطريقة غير طبيعية، كما لو أن الزوايا نفسها ترفض أن تكشف عن ماهيتها.
لا تسألني ما الذي جاء بي إلى هنا.
لا تسألني عن اسم الشارع، أو رقم البيت، أو حتى عن توقيت دخولي.
أنا... لا أتذكر.

لكني أملك هذا المفتاح.
وقد فُتح الباب.

في اللحظة التي أُغلق فيها خلفي، سمعت ذلك الطنين.
ليس طنين أذنيّ، بل طنين جدران، أو ربما، طنين الذاكرة حين تُقفل دفعة واحدة.

الغرفة الأولى...
كانت ساكنة. لكنها تنظر.
أعلم أنها تنظر. هناك نوع من الحذر في ترتيب الكراسي، كأن أحدهم جلس للتو ونهض بسرعة حين دخلت.
الغبار يتطاير، ببطء لا يُصدق. الساعة... نعم، تلك الساعة، اللعينة، تعمل.

لم يسبق لي أن رأيتها، ومع ذلك...

أعرف صوتها. أعرفه بعمقٍ موجِع، كما يعرف المرء أنينًا لم يصدر عنه، لكنه سُجّل في أحلامه.

اقتربتُ.

كان المقعد الأسود هناك، ومواجهًا له... مرآة.

هل كانت مرآة؟

أم مجرد إطار بداخل فراغ؟

نظرتُ، فلم أرَ شيئًا. لا وجهي. لا ظلّي. فقط... لون رمادي يتقلب، كغيمة صغيرة عالقة بين زجاجتين.

ثم—ومن مكانٍ غير محدد في الغرفة—خرج صوت.

هامسًا، كأنه يأتي من داخل دماغي:

"أنت نسيت اسمك، أليس كذلك؟".

2

حين جلستُ على حافة المقعد الأسود، شعرت كأن الجسد لا يتناسب مع الكرسي، أو العكس. كأن هذا المقعد قد شُكّل يومًا لاحتضان جسدٍ آخر، بزاوية ظهرٍ أخرى، بوزنٍ آخر، بذكرى لا تخصني.

المفتاح ما زال في جيبي. يضغط على فخذي كما لو أنه يريد الخروج، يريد فتح بابًا آخر في هذا المكان—بابًا لا أعرفه، ولا أريده أن يُفتح.

تطلعت نحو السقف. تصدع طولي يقسمه إلى نصفين غير متساويين، يشبه تلك الفجوة القديمة بين الوعي والنسيان. فجوة أعيش فيها أنا الآن.
ثم، وكأن البيت كان يستمع لي، اهتزّ شيءٌ خافت في الجدار المقابل.
لا، لم يكن صوتًا.
بل كان صدىً.
صدى لشيء لم يحدث بعد.

نهضت، متثاقلاً، وتقدمت نحو النافذة المغبرة. من خلف الزجاج، لم أرَ العالم كما عهدته.
لم تكن هناك أشجار، ولا سيارات، ولا حتى سماء يمكن وصفها.
كل شيء بدا كأنه مطموس، مرسوم بالفحم المبلل، مموه عمدًا كلوحة لرسّام جبان.

تراجعت.
الساعة ما زالت تقول:
تيك... تاك... تيك... تاك...
لكنني أقسم أن الإيقاع تغير.
أصبح أبطأ.
أكثر خشونة، كما لو أن الزمن نفسه يختنق داخلها.

سمعت صوت خطوات خلف الباب.
خطوات حافية، خفيفة... وكأن أحدهم يسير فوق طبقة من الماء الراكد.

اقتربت.
وضعت أذني على الخشب، وانتظرت.

"لماذا عدت؟"
كان الصوت أنثويًا. لكنه لم يكن صادرًا من خلف الباب، بل من داخلي.

ارتجفت.
لا أعلم إن كانت يدي هي التي فتحت الباب، أم أنه انفتح وحده.

3

الغرفة كانت فارغة.
لكن الضوء فيها مختلف.
لم يكن أبيض، ولا أصفر، بل لون لا أعرف له اسمًا. لون يشعر به الجلد أكثر مما تراه العين.

وفي الزاوية، كانت هناك مرآة أخرى.
لكن هذه المرة... كانت تعكس.

ورأيتني.

لكن ليس كما أنا الآن.
رأيت وجهي كما كان منذ عشرين عامًا، حين اختنق أخي أمامي ولم أحرّك ساكنًا.
رأيته وهو يُخرج كلماته الأخيرة:
"ساعدني..."

وأنا؟
كنت واقفًا، شاحبًا، مذهولًا، جامدًا.

ثم انطفأت المرآة.

4

لا أدري كم من الوقت مضى وأنا واقفٌ أمام تلك المرآة التي انطفأت.
لكنّ شيئًا في داخلي تغير.
شعرتُ أنني فقدت شيئًا لم أعرف يومًا أنني أملكه... ربما الزمن، أو الصوت، أو حتى اسمي.

استدرت، وعدتُ إلى غرفة الجلوس، حيث الساعة التي تخنق الوقت.

لكن شيئًا لم يكن كما تركته.

الكرسي لم يكن في مكانه.
الستائر لم تكن مائلة بتلك الزاوية.
والأخطر...
النافذة الآن تُطل على حديقة لا وجود لها.

نعم، هناك شجرة ميتة تتوسط فناءً رمليًا، مُحاطة بسياج صدئ، وأرجوحة تتأرجح بلا ريح.

ركّزت نظري..
وفي لحظة، لمحته.

طفل صغير، جالس تحت الشجرة، ينظر إليّ.

وجهه مشوّه، مغطى بطين يابس.
لكنه لم يبدُ غريبًا.

كان يشبهني...
في العمر الذي سبقت فيه الصرخة الأولى.

شعرت بغثيان.
اختنق الهواء حولي.
رحت أرتجف دون برد.

وحين رمشت، اختفى الطفل.

لكن الأرجوحة لم تتوقف.

مشيت إلى الممر الضيق المؤدي إلى غرف النوم. كلما تقدّمت خطوة، بدا أن الجدران تقترب من بعضها.
حتى الهواء كان أضيق.

الممر مظلم، لكنه ليس معتمًا.
هناك ضوء خافت—أشبه بالضوء الذي تراه عيناك حين تغمضهما بقوة.

في الجهة اليسرى... باب.
خشب مُهترئ. عليه خربشات لم ألاحظها من قبل. اقتربت.

نقش قديم، محفور بأظافر أو بسكين صدئ، يمتد عبر الباب بالكامل، يكوّن جملة بالكاد تُقرأ:

"من يدخل لا يخرج، ومن يخرج لا يعود."

لم أتردد.
فتحت الباب.

غرفة نوم.
سريرٌ مفروش بلون بني باهت، خزانة ملتصقة بالجدار، ومصباح مائل مكسور الرأس.
كل شيء مغطى بطبقة رفيعة من الرماد، كأن الحريق حدث قبل قليل.

لكن الأكثر رعبًا لم يكن ما رأيته، بل ما لم أره.

كانت هناك موسيقى.
بطيئة، غريبة، تشبه ترنيمة أطفال بلغة مجهولة.
صادرة من تحت السرير.

جثوت على ركبتيّ، ونظرت.

هناك، تحت السرير، كان جسدي.

نعم...
جسدي، أنا، ممددًا بعينين مفتوحتين، يحدّق في وجهي من الأسفل.

تراجعت بسرعة، اصطدمت بالحائط خلفي، والغرفة تاهت في ضوء أحمر مفاجئ.
شممت رائحة دخان.
رأيت يديّ تتصبّبان عرقًا، ثم... لونًا أسود يتسلل من أطراف أصابعي.

خرجت.

ركضت في الممر، متخبطًا، حتى وجدت بابًا لم يكن موجودًا من قبل.

باب خشبي ثقيل. على مقبضه، اسم محفور:
"نور."

أنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.

لكن قلبي يعرفه.

5

يداي كانت ترتجفان حين لمست المقبض. كان دافئًا بشكل غير مريح، كما لو أن أحدهم أمسكه قبلي بثوانٍ فقط.

نور.
الاسم محفور بعمق، بأظافر شخص فقد عقله أو أمله.
أو كليهما.

حين فتح الباب، لم أجد غرفة، بل وجدت... ضوءًا.

ضوءٌ أصفر خافت، ينبض كقلب في نهايات نوبة.

في الداخل، لا جدران، ولا سقف، بل فضاء ممتد من الظلال، تتخلله صور متقطعة، كأنني أسير داخل ذاكرة مصوّرة تُعرض على حائط دماغٍ يحتضر.

الخطوات لا تُسمع.
لكني كنت أتحرك.

وعند المنتصف...
كانت هي.

امرأة، ظهرها لي، ترتدي فستانًا رماديًا مشقق الأطراف.
شعرها منسدل كطحلب مبلل، يصل حتى أسفل ظهرها.

لم تلتفت.
لكنها تحدّثت، بصوت يشبه الورق حين يُحرق ببطء:

"أنت الذي تركتني."

تجمّدت.
لم يكن الصوت غريبًا.

لكنه لم يكن بشريًا.

اقتربت خطوة، فقط خطوة واحدة، ثم توقفت.

فجأة، بدأ كل شيء يتداعى. الضوء يهتز. الأرضية تنحني.
والمرأة بدأت تذوب، تنكمش، وتتحول إلى شيء آخر.

جثة.

مربوطة بحبل. معلقة من رقبتها.

صرخت.

صرخة خرجت مني ببطء لا يُحتمل، كأن حبالي الصوتية تعاني من قيود لا مرئية.

جثوت على الأرض. شعرت بشيء ينزل من أنفي...
دم؟

لا.
سائل أسود. لزج. له رائحة لا يمكن وصفها... لكنها، وبشكل مؤلم، مألوفة.

من هذا الجحيم خرجت إلى الممر ثانية.

البيت كله كان ينبض الآن. الجدران تنبض. الأرض تنبض.
وكل شيء يبدو وكأن أنفاسًا كثيرة تُسحب من داخلي دفعة واحدة.

عدت إلى غرفة الجلوس.

لكنها لم تكن كما تركتها.

الساعة... توقفت. المقعد... خالٍ.

وفي المنتصف، كان هناك شيء ممدد على الأرض.

رجل.
عيناه مفتوحتان.
يحدّق في السقف.

اقتربت.

رأيت وجهي.

قفزت للوراء، ارتطمت بالحائط، وأطلقت شهقة لم أسمعها.

كيف أكون هنا... وهناك؟
أأنا في حلم؟
أم أن البيت بدأ يستنسخني؟
أم أنني—ولوهلة خنقتني الفكرة—قد مُتُ قبل أن أدخل هذا المكان، وكل ما يحدث الآن ليس إلا حُمى جسد يتحلل؟

في تلك اللحظة... سمعت الصوت من جديد.

لكن هذه المرة كان خلفي، همسًا دافئًا في أذني:

"لقد عدتَ متأخرًا جداً."

التفتّ.

ولا شيء.

ولا أحد.

ولا أنا.

6

وقفت في منتصف الغرفة، أتنفّس ببطءٍ مذعور، كمن يحاول تذكّر كيف كانت الحياة قبل هذا المكان.

لكن لا شيء يعود. ولا شيء يُشرح.

ثم... وقع بصري على ذلك الكائن الممدد—أنا، أنا الآخر.
عيناه ما زالتا مفتوحتين، لكن شيئًا فيهما تغيّر.

لم يعودا تنظران إلى السقف.

كانتا تنظران إلي.

وفي لحظة، نهض الجسد. ليس حركة طبيعية.
بل ارتقاء صامت، كأن الجسد شُدّ من خيطٍ علويّ غير مرئي.

ثم وقف أمامي، نسختي، أنا الآخر.

لكن وجهه لم يكن وجهي فقط.

بل كان وجوهًا كثيرة.
طفلٌ يصرخ.
رجل يبتسم بثقل.
امرأة تبكي دون صوت.
عجوزٌ يئنّ في الظلام.

كلّها تداخلت في ملامحه.
وأنا؟
كنت أذوب أمامه. صرخت:
"من أنت؟"

أجاب بصوتي، لكن أكثر اتزانًا مما أتحمّله:

"أنا ما تركته خلفك."

ثم، بخطوة واحدة، دخل فيّ. لا، لم يقترب مني.
دخل فيّ.

كأن جسدي كان قالبًا فارغًا، يحتاج إلى "أنا" أخرى ليمتلئ.

كل شيء أسود بعدها.
حين فتحتُ عيني، لم أكن في المنزل.

كنت داخل المرآة.

أنظر إلى غرفةٍ أعرفها، لكن لا أستطيع لمسها.

ورأيت رجلاً يدخل. رجلٌ يشبهني...
لكنني أعرف الآن، أنه ليس أنا. إنه التالي.

والساعة؟
عادت لتدق.

تيك... تاك... تيك... تاك.

7

لم أنم.

ربما أغمضتُ عينيّ، لكن لم يكن هناك نوم.
كان بينهما، في الفراغ الذي لا تُولد فيه الأحلام بل تُستحضر الأحكام.

استيقظتُ—إن جاز القول—على صرير خافت.
بابٌ يُفتح ببطء، لا فيزيائيًا، بل كما تُفتح جملة غير مكتملة في ذهنٍ مسكون.

الغرفة أمامي لم تكن كما تذكّرتها.
الأثاث كما هو، لكن كلّ شيء فيه شعور بالانتباه.

الأريكة مائلة نحو المركز،
المرآة مكسورة لكنها تميل في الزاوية بحيث تعكسني دائمًا،
والساعة لا تتحرك، لكن عقربيها يشيران إلى اسمي، لا إلى الوقت.

ثم حدث شيء بسيط... لكنه سحقني بثقله.

الصورة.
كانت معلقة في الردهة، تلك التي رسمتها نور.
أنا، على الطاولة، أقرأ، وهي تبتسم في الخلفية، نصف وجهها محجوب بالستار.

لكن الآن؟
الستار لم يكن هناك.

ووجهها مكشوف.

ليس وجه نور كما أتذكره، بل شيء مُعدّل عليه.

عيناها... مفتوحتان على اتساعٍ مرعب، وفي كل عين...
أنا.
واقف، متجمد، كما كنت قبل قليل.

أغمضتُ عيني لحظة، ثم نظرت من جديد.

هذه المرة لم يكن هناك أحد في الخلفية.

الصورة أصبحت لي وحدي.

تقدّمت ببطء، رُكبتيّ تصرخان من ثقلٍ غير مادي، وفتحت باب الغرفة المجاورة.
الباب الذي، حين كنا نسكن هذا البيت، أغلقناه بعد جدالنا الأخير.
هي التي قالت: **"هذا الركن يُغضبني. فيه شيء مُريب."**

ضحكتُ يومها، كالساخر من قلقٍ أنثوي.
والآن... أنا من يُحني رأسه ليدخل.

الغرفة خالية.
لكن الجدران مغطاة برسومٍ خفيفة، بالكاد تُرى، كأن أحدهم خدشها بأظافره.

أشكال متكررة:
امرأة ممددة،
رجل واقف،
حوض،
ساعة،
كرسي.

كلما حدّقت، شعرت أن الرسومات تتحرك ببطء، ترتعش كأنها مصنوعة من لحم.

وفي الزاوية... شيء آخر.

ظِلّ.

ليس لشيء في الغرفة. بل **لي.**

لكني لم أتحرك.

وظلي تحرك.

ارتجفتُ.
الصمت كان ثقيلًا جدًا.
ثقيلًا لدرجة أن أنفاسي بدت وكأنها تُحدث شقوقًا في الزمن.

همست، دون وعي:
"نور؟"

وردّ الصوت، ليس من الغرفة، بل من داخلي:
"أنا هنا منذ البداية."

8

ارتدّ الصوت داخلي كما يرتدّ الحديد بضربة مطرقة.
"أنا هنا منذ البداية."

لم يكن صدى، بل تكرار مقصود.
كما لو أن الكلمات تُنحت في جمجمتي من الداخل، لا تُقال.

دُرتُ بعنف، أبحث عن مصدر، عن فتحة هواء، عن وهم يُقنعني أنني أتخيل.

لكن... كانت الغرفة ساكنة كقبرٍ بلا جسد.

وفي لحظةٍ غير محسوبة، **انطفأ الضوء.**

أقصد، لم ينطفئ المصباح، بل الضوء كفكرة.
كل شيء اسودّ، لكني رأيت أكثر من أي وقتٍ مضى.

رأيتُ الغرفة كما تراها الذكريات، لا كما تراها العيون.
رأيتُها يوم انكفأت نور على الأرض تبكي،
يوم قلتُ كلمتي الأخيرة قبل أن أصفع الباب وأخرج.

يومها قالت، بصوت مرتجف كقنديل يحتضر:
"إذا خرجت الآن، لن ترى هذا البيت كما كان أبدًا."

خرجت. وعُدت.
وها أنا الآن، في بيتٍ لا يشبه الذاكرة، بل يشبه الجريمة.

أشعلتُ عود ثقاب من جيبي دون أن أتذكر أني حملته.
ضوءه الأصفر ارتعش، ثم استقرّ على زاوية في الجدار.

وهناك...

كانت مرسومة بخطٍ حاد:
"قتلتَ من كانت تُضيء ظلك."

خطّها يشبه خط نور.
كان لها أسلوب مميز في كتابة الحروف العربية، حيث الـ"ر" تميل قليلاً للأعلى، كأنها تتردد.

ركعتُ بلا وعي، لامستُ الجدار بأصابعي.
الطلاء بارد، لكن الكلمة **دافئة**... كأنها كتبت قبل لحظات.

ثم بدأت الأرض تهتز. لا... ليس زلزالًا.
بل نبض.

نبض يشبه القلب، لكنه بطيء... كثيف.
"دووووم... دووووم..."
صوتٌ كأن البيت كله يتنفس من تحت الأرض.

وفجأة، سقطت صورة من الجدار الخلفي، رغم أنها كانت معلّقة بإحكام.

وجه **نور** فيها واضح.

لكن عيناها ليستا موجّهتين نحوي كما في الصور المعتادة.

بل نحو اليسار... نحو بابٍ لم أره من قبل.

باب صغير... لا يصل طوله إلى خصري.
ومقبضه مُلطّخ بلون بنيّ قاتم.
دمٌ قديم؟

دهان؟

شيء بينهما؟

أردتُ الخروج، أردتُ الصراخ، أردتُ أن أكون شخصًا آخر.

لكنني، بدلًا من كل ذلك، زحفتُ على ركبتيّ... نحو الباب الصغير.

مددتُ يدي المرتعشة...

وأمسكت المقبض.

هل أفتح الباب الآن؟

9

المقبض المعدني كان بارداً... كأنني أمسكت بعظمٍ خرج من قبره للتو.

أدرتُه، فلم يتحرك.
شدَدتُ... بلا جدوى.

ثم، وكأن الذاكرة أزاحت الغبار عن زاوية في جيبي،
أخرجتُ **مفتاحًا صغيرًا**—نحاسيًا، منحنيًا قليلًا عند الطرف.
لم أذكر أنني حملته. ربما. لا أعرف.
لكن يدي كانت تعرفه.

أدخلته في القفل، فصدر صوتٌ خافت:
"كلاك!"

وفتح الباب، لا بصوت، بل **بهمس**.
كأن الخشب تَنَفَّس بعد ألفة طويلة مع الاختناق.

خلف الباب... لا توجد غرفة.

بل نفق.

نفق ضيّق، الجدران فيه قريبة حتى تشعر بثقلها على صدرك.
الهواء رطب، رائحته ليست عفنة فحسب، بل مألوفة...

رائحة ماء، وصابون، ودم.

الضوء الوحيد جاء من مصباح متدلٍّ من السقف، يتمايل كأنه في قاع بحر.

خطوتُ خطوة... ثم ثانية...

وها أنا الآن في الممر الذي يقود إلى حوض الاستحمام القديم.

في آخر النفق، بابٌ مفتوح على مصراعيه.

داخله... غرفة بلا نوافذ.

وفي الوسط، حوض أبيض مائل للصفرة، قديم كأنه من بيت غير هذا.
كان مملوءًا بماءٍ راكد، راكِدٍ كجفن جثة.

وقبل أن أُكمل الدخول،
شعرت بقطرات ماء تنزلق من السقف على جبهتي.
لكن حين لمستها، لم تكن ماء.

كانت دافئة. ولزجة.

رفعت رأسي...

فلم أر شيئًا، فقط سقفًا يتقشّر.
لكني شعرت... وكأن أحدًا فوقي، يزحف.

اقتربتُ من الحوض.

جلست على ركبتي.

ثم... رأيت وجهها.

نور.

مستلقية في الحوض، مغمضة العينين.
هادئة، كأنها في سلام.
لكن فمها نصف مفتوح، وكأنها توقفت عن الصراخ قبل ثانية فقط.

مددتُ يدي للماء...

لكنه لم يكن ماء.

بل خليط بين الحبر، والدم، ومادة لم أعرف لها اسمًا سوى: **"ذاكرة."**

وعندما لامست سطح الحوض، سمعته:

"أنتَ وضعتني هنا. و أنا لم أغادر قط."

صرخت بصوت مخنوق:

"أنا؟!".

10

استيقظتُ من النوم. هذه المرة واقفًا.
كأنني لم أنم، بل أُغلقت عيناي على مشهد، ثم فُتحتا عليه من جديد... بعد قرون.

الغرفة التي كنت فيها اختفت.
البيت تغيّر.

الجدران انتفخت كما لو أنها تتنفس.
الأرض تئن مع كل خطوة، كأنني أسير فوق صدور موتى لم يُدفنوا بعد.

ثم رأيت الباب.

باب الصالة، نفسه الذي كنت أمرّ به آلاف المرات.

لكن هذه المرة، في وسطه، ظهرت **بصمة وجه.**

كأن شخصًا صرخ في الخشب.

أنفٌ بارز قليلًا،
فمٌ مفتوح بلا صوت،
وعينان غائرتان.

لامست الخشب.

فظهرت **قطرة دم** من زاوية العين اليسرى.

ارتجفتُ.
عدت إلى الوراء، وأنا أراقب الخشب... لكنه الآن **ينظر إلي.**

أقسم أن العين اليمنى تحركت قليلًا،
ثم اختفت البصمة كأنها لم تكن.

لكن في كل باب أمرّ به بعد ذلك... كان الوجه يظهر مجددًا.

تارةً واضحًا،
وتارةً مشوّهًا،
وتارةً نصفه فقط،
كما لو أن الذاكرة تتآكل ببطء لكن بإصرار.

في المطبخ،
رأيت وجهها في سطح الخزانة.
عين واحدة، تلمع كمرآة صغيرة.
لم أتحمّل النظر.

وحين فتحت الصنبور... خرج **حبر أسود.**
تجمّع في الحوض، وشكّل دوائر دوّارة كأنها تنطق شيئًا بلغة لا تُقرأ بل تُشعر.

"أنا هنا".

ثم، وفي الساعة الرابعة تمامًا—رغم أن الساعة كانت متوقفة منذ الأمس—
سُمع صوت خطوات خلفي.

لكن هذه المرة، لم أدر.

لأني شعرت بها **في صدري.**
كأن أحدًا يخطو داخلي، لا خلفي.

وهمس صوت، كأنه قادم من مسام جلدي:

"كم مرة تموت قبل أن تعترف؟"

صوت باب يُفتح من تلقاء نفسه. وجه يظهر للحظة في المرآة.

أنا؟
أم هي؟

لا فرق.

بدأ البيت يبتلعني...
لا بأس،
ربما هذا هو العقاب العادل لمن رأى وجه القتل ولم يُشِح.

11

دخلت الحمام.

المرايا هناك... لم تكن تعكسني.

بل كانت تُعيد رسم شيء **يشبهني**... لكن ليس أنا.

كنت أتحرك، والمرايا تتأخر.

أومئ برأسي، فتومئ بعدي بثانية. كأن الصور التي فيها... **تتعلّم سلوكي.**

أو تسخر مني.

أو تنتظر لحظة تخرج فيها عن إطاعتي.

خلعت قميصي لأغسل وجهي.

فرأيت الجلد على كتفي الأيسر... متشقّق.

تشققًا دقيقًا، كأن أحدًا حفر عليه شيئًا بأظافر صدئة.

اقتربت من المرآة. رفعت ضوء الهاتف...

وبدأت أقرأ:

"أنا هنا."

"أنا نور."

"هو دفنني."

تكررت الجمل، بأحرف عربية دقيقة، محفورة في جلدي!

امتدت من كتفي حتى صدري،
كأن جلدي صار صفحة، وأصابعي لم تعد لي.

صرخت.

صرخة عميقة... ليست رعبًا، بل رفضًا... كأنني أحاول أن أكون "شيئًا آخر".

لكن الصوت الذي خرج لم يكن صوتي.

كان **صوت امرأة.** صوتها هي.
نور.

هزّ البيت نفسه، وانطفأ الضوء، واهتزت المرايا، وسقطت المرآة الرئيسية على الأرض، وانكسرت.

نظرت إلى شظاياها...

كلّ قطعة تعكسني بشكل مختلف:

واحدة تبتسم،
ثانية تبكي،
ثالثة عيناها مفقوءتان،
ورابعة تهمس بكلمات غير مسموعة.

لكن في إحداها... لم أكن أنا.

كانت هي.

نور.

منحنية، تنظف دمًا على الأرض... وتهمس:
"كان يمكن أن تسامحني."

ركضت للخارج،
كل باب يفتح وحده قبل أن أقترب. كل خشبٍ يُظهر وجوهًا جديدة،
أشخاصًا لا أعرفهم،
نساءً شاحبات،
أطفالاً بعيون متّسعة.

لكن كلهم... يحملون نظرة واحدة:

"كُنّا هناك حين دفنتَها."

12

البيت بدأ يذوب.

ليس بالمعنى الفيزيائي، بل كما تذوب الذكريات في عقل رجل بدأ يدرك أن كل ما نسيه... لم يُمحَ، بل **اختبأ.**

الجدران تنحني كأنها تحنو،
الأبواب تصغر،
الضوء يخفت كشمعة تحاول البقاء رغم الريح التي تخرج من داخلي أنا.

ثم... وقفت في الصالة.

وكانت الساعة تشير إلى الرابعة مجددًا.
الرابعة،
دائمًا الرابعة،
الساعة التي طعنتُ فيها الزمن.

في منتصف الصالة، لم يكن هناك شيء...

ثم بدأت تتكون **الصورة.**

كأن شخصًا يسكب الحبر في الهواء،
يتجمّع، يتكتل، ينسكب في شكلٍ... **مشهد.**

مشهد قديم.
لي، أنا، واقف.
في يدي شيء ثقيل... حديدي.

أصرخ.
هي تصرخ.

نور.

تُمسك بطرف قميصي، تطلب أن أتوقف.
أنا أرتجف. لكن في الصورة، أنا لا أرتجف.

أنا أضرب.

أضرب حتى الصمت.

حتى تتوقف عيناها عن الرجاء.
حتى يتجمد الدم، وتغيب الروح من الغرفة.

جثوت على الأرض، أحاول أن أصرخ "هذا ليس أنا!"

لكن شيئًا من الأرض همس لي:

"هذا أنت...
وهذا أنت مرّة أخرى...
وهذا سيكون أنت إلى أن تنطق الحقيقة."

ثم ظهر شيء جديد.

في وسط الصالة، ظهرت مرآة كبيرة، لم أرها من قبل.

كانت مغطاة بالقماش. حين سحبته، لم أجد صورتي.

بل وجدت **نور**.

تنظر إليّ.
صامتة.

لكن في انعكاسها، خلفي،
كان يقف **رجل آخر**... يشبهني.

ليس أنا.
لكن فيه كل ما أنا عليه.

نظر إليّ عبر الانعكاس، واقترب... لا في الواقع، بل في المرآة فقط.

ثم همس بصوتي:

"اعترف، أوسأعيش مكانك."

ثم ارتج البيت كله.

الأبواب انغلقت.
الوجوه اختفت من الخشب، لكنها ظهرت في عينيّ.

كل ما قتلته عاد...
لا بشكل جسدي، بل بشكل **انعكاسي** .كأن العالم صار مرآة،
وأنا... لم أعد أعرف أين أقف،
وفي أي بُعدٍ أنا "أنا".

13

كل شيء توقف.

حتى صوت قلبي، الذي تعلّقت به لأطمئن أنني لا زلت "شيئًا حيًا"، اختفى.

أجلس على الأرض، ظهري للجدار،
عقلي كحجرة أُفرغت فجأة من الأثاث،
وأصوات البيت تتحوّل من أصوات خشبٍ يئن... إلى **أنفاس.**

كانت تتنفس.

هي.

أعرف ذلك اليقين كما أعرف طريقة مشيها، ونبرة بكائها، وهمسها حين تقول:
"لا تغلق الباب قبل أن أنام..."

ثم... سمعته.

صوت كعب حذاء يطرق الأرض برفق.
ليس كصوت المشي، بل كنبضٍ أنثوي يُعلن وجوده في بيتٍ لم يعُد يعرف الفرق بين الماضي والحاضر.

رفعت رأسي.

كانت تقف هناك.

"**نور**".

لكنها لم تكن **نور** تمامًا.
وجهها هو وجهها... لكنه بلا ضوء.

ليس ميتًا، بل **منطفئًا.**

كأن الحياة خرجت، وشيئًا آخر دخل مكانها... شيء لا يُسمى.

كانت ترتدي ثوبًا أبيضًا ملوثًا،
وخطواتها لا تلمس الأرض، بل تُثير الغبار فقط.

عينها اليمنى مغلقة،
واليُسرى تنظر إليّ بنصف حزن، ونصف اتهام... وكامل المعرفة.

تقدمت.

"أين كنتَ، عندما توقفتُ عن البكاء؟"
سألتني، بصوت لا يُقال، بل يُشعر في العظام.

أجبت... أو حاولت.
لكن فمي لم يفتح.

فقدت حق الكلام، كما يفقد المذنب حق الدفاع حين تُعرض الجثة.

اقتربت أكثر.

وضعت يدها على صدري. كان ملمسها باردًا... لكن قلبي احترق تحتها.

ثم، همست:

"هل أريك كيف دفنتني؟"

14

وضعت إصبعها على جبيني.

ثم اختفى البيت.

واختفى أنا.

وجدتُ نفسي واقفًا عند باب غرفة النوم.
ليلٌ قديم، سقفٌ أعلى من الذاكرة،
والجدران مُتسخة ببقع غير واضحة... لكنها تنزف في الضوء الخافت.

أنا هناك... نعم، أرى نفسي.

واقف، أنظر إليها.

هي، "**نور**"، تجلس على السرير،
وجهها ملطّخ بدمعٍ لم يجف،
وصوتها يخرج متقطعًا:

"بس... خليني أشرح لك، الله يخليك."

لكني... "أنا" لا أسمع.

أراه يرفع يده. يحمل شيئًا ثقيلاً.

ربما كأسًا.
ربما ساعة.
ربما حجرًا.

الشيء ليس المهم... بل القرار.

ثم تُعيدني هي إلى جسدي.

الآن... لست أراقب.

أنا هو.

أمسك الشيء،
أشعر بالحرارة في رأسي،
بالخدر في أطرافي،
بغضبٍ لا أعرف سببه،
برغبة بالانفجار لا تشبهني.

ثم...

أضربها.

مرة.

مرتين.

ثم يحدث شيء غريب. كل مرة أضرب،
يتكرر المشهد...
لكن يتغير شيء بسيط.

في إحدى المرات، تضحك.

في أخرى، تسقط وتعود لتقف.

في الثالثة، لا تصرخ... بل تقول:

"هل هذا كل ما يمكنك فعله؟"

أنا لا أعيش مشهدًا واحدًا...

بل أعيش كل الطرق التي قتلتها بها... في رأسي، وفي الواقع، وفي الاحتمالات التي لم تقع لكن فكرتُ بها.

الكيان الذي كانت **نور**...
تحول إلى مرايا تُريني وجهي في كل قرار جبان، كل لحظة تجاهلت فيها الألم، كل مرة سكتّ فيها على الغصة وهي تمشي في البيت كأنها تمشي فوق شظايا زجاج لا تُريدني أن ألاحظها.

ثم، تهمس لي:

"أنتَ لم تقتلني بضربة واحدة،
بل قتلتني على مدى أشهر...
كل كلمة قطعتني،
كل صمت خنقني،
كل مساء دخلت فيه للنوم، وتركتني أواجه الليل وحدي."

عدت فجأة إلى الصالة.

كنتُ جاثيًا على الأرض.

دموعٌ... أم حبر؟ لا أعلم.

لكن على الحائط أمامي كُتبت عبارة بخط يشبه خطها:

"الاعتراف ليس إنقاذًا... بل البداية."

15

لم يكن البيت كما تركته قبل دقيقة.

كان يتقلص.

جدرانه تقترب من بعضها،
السقف يهبط ببطء كجفنٍ يُغلق على كابوس،
والأرض صارت طريّة... كأنها **لحم.**

مشيت،
فتركت قدماي آثارًا دامية على البلاط.

جدران الصالة كانت تنبض.

ليس مجازًا.

كان هناك **نبض.**

وكلما تقدّمت، ظهرت الكتابات من جديد.

لكنها هذه المرة كانت أوامر، لا عبارات.

"انزل إلى القبو."
"هناك تنتظرك."
"القلب لا يُحرق... يُستخرج."

صرخت: "كفى! ماذا تريدين؟!"

لكن صوتي لم يخرج.

نور ظهرت مجددًا. من الحائط.

كأنها نُزعت من لحم البيت نفسه،
وجهها مغلّف بطبقة خشبية،
وعيناها مملوءتان بالذكريات التي دفنتها أنا... لا هي.

اقتربت، وهمست:

"تريد النجاة؟ أعطني اسمي كاملًا."

أجبت، ألهث: "نور! هذا اسمك!"

هزّت رأسها.

ثم اقتربت من أذني، وقالت:

"اسمي هو كل ما كنتُه...
قل لي، من كنتُ أنا بالنسبة لك،
بصدق... من كنتُ؟"

صمتّ. لأنني لم أعرف.

هل كنتُ أحبها؟
أم كنتُ أمتلكها؟
هل رأيتها إنسانًا؟
أم مرآةً مجروحة لعجزي؟

كلما حاولت النطق،
انغلقت جدران البيت أكثر.

وكلما كذبت،
خرجت أصوات أنين من الأرض.

ثم، انفتح باب القبو. من تلقاء نفسه.

ولأول مرة... رأيت نور **تبكي**. لكن الدموع لم تكن ماء.

كانت من رماد.

همست، مرتجفة:

"القبو هو ذاكرتي الأخيرة. انزل... إما تعود بي، أو تلحق بي."

16

نزلتُ الدرج. أو ظننتُ أنني أنزل.

الدرجات لم تنتهِ،
والهواء صار أكثر كثافة... كأنني أغوص، لا أمشي.

بعد الخطوة العشرين، بدأ الضوء يختفي.
بعد الأربعين،
بدأت الدرجات تلتفّ على نفسها...
ثم رأيت شيئًا على الجدار:

"هنا بدأ كل شيء."

ثم بعد بضع درجات:

"وهنا اخترت أن لا ترى."

ثم:

"وهنا... ماتت أنت، لا هي."

حين انتهى السلم أخيرًا، وصلت إلى باب معدني.

كان مفتوحًا. وراءه... قبو.

لكن لا شيء فيه طبيعي. الحيطان كانت من **جلد.**

نابض، رطب، يتنفس.

الأرض من خشب محترق، تفوح منه رائحة دم قديم.

وفي الوسط، تابوت.

اقتربت.

لم أكن أريد...
لكني كنتُ مُجبرًا كما يُجبر الجاني على النظر في وجه ضحيته قبل الحكم.

فتحت التابوت. لم يكن فارغًا.

لكن... لم يكن جسد **نور**.

بل **أنا.**

أنا، بنفسي، راقد في داخله،
عينيّ مفتوحتان،
وفمي يبتسم.

وكان "أنا" هذا يُكلّمني... دون أن يحرك فمه.

"لم تكن المشكلة في أنك قتلتها، بل في أنك رفضت تصديق أنها إنسانة."

صرخت: "أحببتها! كنتُ ضائعًا!"

ضحك الجسد داخل التابوت.

"أحببتَ شعور امتلاكها.
أحببت الصمت عندما كان يخدمك،
والآن... الصمت يُحاكمك."

ثم بدأت الأرض تحت قدمي تُفتح.

تشققت...
من داخلها خرجت **أصوات.**

كلها "هي".

تضحك.
تبكي.
تصرخ.
تدعو.
تغني لابن لم يولد.
تخبر صديقةً بسرّ لم تسمعه.
تصمت... بصمتٍ لا ينسى.

ثم قال الجسد الأخير:

"كل ما عليك هو أن تعترف،
ليس بجريمتك... بل بـ*من كانت*".

وفي اللحظة التي همست فيها باسمها **كما لم أنطقه من قبل—كإنسانة، لا كجزء مني—**
اهتز القبو كله.

والتابوت اشتعل.

ولم أهرب. لأني لم أكن أريد النجاة...

بل **الصدق.**

17

استيقظت. لكن ليس في بيتي.

ولا حتى في قبوٍ أو مصحّ.

استيقظت في **صالةٍ بيضاء، عادية، صامتة.**

وكان الهواء فيها نظيفًا، كأنه لا يعرف ما هو الحزن.

النافذة مشرعة، والشمس تتسلل كطفل خجول.

لكني كنت أعرف أن هذا ليس "نجاة"،
بل **اختبار.**

كل شيء حولي سليم... لكن داخلي لا زال يتشقق.

على الطاولة المجاورة، وجدت ورقة مطوية.
بخط يدها.

ليس تهديدًا، لا رسالة مسكونة.

بل عبارة واحدة فقط:

"هل ستتذكرني حين لا يُجبرك الرعب على ذلك؟"

أخذت أنفاسي ببطء، وقمت من مكاني.

الجسد أثقل مما كان.
الركبة تؤلمني.
الكتف مجهد.

لكن للمرة الأولى... لا أحمل سكينًا.

ولا خوفًا من ظهورها.

بل رغبة **في أن تبقى.**

مشيتُ إلى المطبخ.
كل شيء كما تركته قبل أشهر.
السكين مكانها، الكوب المكسور على الرف،
الصورة التي مزقتها... مرمّمة وموضوعة على الثلاجة.

صورتها.

تضحك.

تضحك كما لم تفعل في السنة الأخيرة.

عند المساء، جلست في الصالة.

وحين أُطفئت الأنوار،
سمعت خطواتها.

لكن هذه المرة...

لم أهرب.

بل قلت بصوت هادئ:

"أهلاً نور."

ولم تجب.

لكن شعرت بها تجلس بقربي.

دون حقد.
ولا حب.
بل **ذاكرة كاملة، مكتملة، صامتة... لكنها حاضرة.**

18

مرت أسابيع. ربما شهور.

الوقت لم يعد يُقاس بالساعات، بل **بعدد المرات التي أتذكّر فيها دون أن أبكي.**

أصبحت الحياة قابلة للمشي.

لكن دائمًا... خطوة على الزجاج.

في كل صباح، أفتح النوافذ.

ليس لأجل الهواء.
بل لأني أعدها كل مرة أن لا أُغلق شيئًا عليها بعد الآن.

وفي كل مساء، أترك غرفة نومها مضاءة.

لا أدخلها. لا ألمس أي شيء فيها.

لكن الضوء... يبقى.

كأنها ستعود من العمل وتحتاجه.

الناس عادوا يكلمونني.

لكن لا أحد يسأل أين كانت "**نور**".

ربما يظنون أنها رحلت.
ربما يظنون أني طلّقتها.

ولا أحد يتخيّل...

أنها لا تزال تمشي في البيت أحيانًا،
تُحرّك المقعد قليلًا،
تُسقط صورة من الجدار،
وتهمس لي عند النوم:

"تذكرني... تذكرني."

كنتُ أعتقد أن الرعب هو أن تظهر لي ميتة.

لكن الرعب الحقيقي... أن تُغفر لي.

لأني لا أستحق.

ومع ذلك... تبقى.

لا كشبح.

بل كـ **بيت.**

بيت لا يُغادر.

ولا أخرج منه.

لأني أنا هو... وهي أنا.

وفي ليلة أخيرة،
قبل أن أغمض عينيّ،
سمعتها تقول:

"أنت لم تقتلني وحدي... بل قتلت ما كان يمكن أن نكونه."

ثم:

"لكن إن كتبتني... قد أعيش بطريقة أخرى."

ففتحت الدفتر.

وكتبت.

وها هي القصة بين يديك.

ربما هي لم ترحل. ربما هذا هو بيتها الجديد.

وأنت الآن، عزيزي القارئ، قد فتحت بابه.

سكت القلم.

لم يرتجف.
لم يتأوه.

بل توقف بهدوء.

كما لو أن الراوي كتب آخر سطرٍ له في حياةٍ لم يكن له يدٌ في كتابتها من الأصل.

ثم دار برأسه ببطء نحو يمينه.
رجلٌ في منتصف العمر، بنظارات طبية ودفتر صغير في يده، جلس يراقبه بهدوء.

كان الطبيب النفسي المعتاد.

قال له بابتسامة دافئة:

"انتهيت؟"

أومأ الرجل برأسه، وابتسم بسكون.
عيناه كانتا فارغتين، لكن فيهما لمعة... لمعة شخص نجا من شيءٍ لا يمكن تفسيره.

"كيف تشعر اليوم؟"

أجاب بصوت خافت:

"أخف... كأني كتبت ثِقلي."

نهض الطبيب وساعده على الوقوف، وأعاد الدفتر إلى الرف المجاور، ثم سار معه عبر الممر الأبيض الطويل، إلى غرفته ذات الرقم "5".

بعد قليل، دخل شاب في أواخر العشرينيات. طبيب مقيم جديد.

"دكتور، من هذا الرجل؟ يبدو عليه الوقار... والحزن العميق."

تنهد الطبيب الكبير، وجلس.

قال:

"هذا رجلٌ حفظ القرآن كاملاً... وكان مثالاً في الأخلاق. تزوّج من امرأة أحبها من أعماق قلبه.
كان يعمل ليل نهار، فقط ليؤمّن لها الحياة التي أرادها لها."

سكت، ثم أضاف بصوت منخفض:

"لكنه لم يكن يعلم... أن زوجته كانت فاسقة. كانت تقفز من حضن رجلٍ إلى آخر.
وكل أولاده... لم يكونوا أولاده."

اتسعت عينا الطبيب الشاب.

"ماذا؟"

"نعم... لا أحد منهم من صلبه. كلهم أولاد رجالٍ آخرين.
وحين علم... لم يقتلها. لم يصرخ. لم يواجه.
بل... تحطم.
تحوّل الألم إلى شرخٍ صامتٍ، ثم إلى... مرض.

والآن؟ هو في هذا المشفى منذ خمس سنوات، يكتب قصته كل يوم، وكأنها تحدث لأول مرة."

سكت الشاب لحظة، ثم سأل بحذر:

"وماذا عن الزوجة؟"

رد الطبيب القديم، بعينين لا تخفي الاشمئزاز:

"الابن الأكبر... حين عرف الحقيقة، لم يحتمل.
قتل أمه في لحظة جنون. وهو الآن... في السجن."

صمت.

لحظة ثقيلة مرّت.

ثم قال الطبيب الشاب، بخوف خفيف:

"لكن الرجل يبدو... هادئاً. كما لو أن شيئاً منه لا يزال هناك."

ابتسم الطبيب الكبير، وقال:

"أحيانًا، أكثر العقول انكسارًا... تُخبئ أعظم الصدق. هو الآن مجنون في نظر القانون.

لكن في نظري؟ هو أكثر من نجا من **بيتٍ لم يكن بيتًا... بل فخاً له وحده.**

بعد كل شيء، الحب وهم يُباع للمغفلين."

وفي الغرفة رقم "5"،
كان الرجل جالساً، يحدّق في الجدار،
ويهمس بكلمات جميلة لا يسمعها أحد...

يقرأ القرآن بهدوء.

النهاية

للتواصل مع الكاتب.

الدكتور بقدونس

dr.baqdunis@gmail.com